*صور الطباق (2)*

*بحث فى دراسات بلاغيه*

إعداد أ/ *د. وليد علي الطنطاوي*

*قسم اللغة العربية*

*كلية اللغات – جامعة المدينة العالمية*

*شاه علم – ماليزيا*

*waleed.eltantawy@mediu.edu.my*

**خلاصة ـــ هذا البحث يبحث في صور الطباق**

**الكلمات المفتاحية : جمهور البلاغيين ،الراجح ، الأفعال**

1. **المقدمة**

**الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، سوف نتحدث في هذا المقال عن صور الطباق**

1. **عنوان المقال**

**وقد حصَرَ بعض البلاغيين طباق السلب في الأفعال دون الأسماء، ومن هؤلاء الخطيب القزويني، الذي عرفه بقوله: هو الجمع بين فعلي مصدر واحد مثبت ومنفي، أو أمر ونهي.**

**وليس ذلك برأي؛ فالصواب هو رأي جمهور البلاغيين.**

**وبيَّن أن هناك ما يسمى بطباق التدبيج، والتدبيج في اللغة: التزيين، يقال: دبج الأرض، أي: زينها، واصطلاح البلاغة يختص بالألوان التي تذكر بقصد الكناية، أو التورية، وقد عرفوه بأنه ذكر لونين أو ألوان بقصد الكناية أو التورية في معنًى من المعاني، كالمديح، والفخر، والغزل، والوصف، ونحو ذلك.**

**ومن أمثلته قول أبي تمام في رثاء محمد بن حميد:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **تردى ثياب الموت حمرًا فما أتى** | **\*** | **لها الليل إلا وهي من سندس خضرِ** |

**فقد كنى عن الاستشهاد بارتداء الثياب الحمراء، ثم كنى عن دخول الجنة بلبس السندس الأخضر، وجمع بين الحمرة والخضرة على سبيل الطباق.**

**ومنه قول عمرو بن كلثوم في الفخر بقومه:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **وأنَّا نورد الرايات بيضًا** | **\*** | **ونصدرهن حمرًا قد روينا** |

**فقد كنى بالرايات البِيض عن شجاعتهم وقوتهم، وأنهم لا يخافون العدو ولا يعبئون به، بل يلقون الأعداء بوجوه وضَّاحة وثغور باسمة، وهذا عنوان شجاعتهم وقوتهم، ثم كنَّى باحمرار الرايات عن كثرة القتلى من الأعداء، فالرايات قد ارتوت بدمائهم فصُبغت باللون الأحمر، والطباق في البيت بين الحمرة والبياض. ومن ذلك قول ابن حيوس مادحًا:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **إن ترد علم حالهم عن يقين** | **\*** | **فالقهم يوم نائل أو نزال** |
| **تلقى بيض الوجوه سود مفار النقع** | **\*** | **خضرَ الأكناف حمر النصال** |

**النائل يعني: العطاء، والنزال مصدر نازل، أي: قابله في الحرب وقاتله، والأكناف جمع كنف، وهو الجاني، وخضرتها كناية عن سواد دروعها، والعرب تسمي الضارب إلى السواد أخضر، والنصل عندهم هو السهم، وربما سمي السيف نصلًا، فهنا كنى ببيض الوجوه عن كرمهم، وبسود مثار النقع خضر الأكناف حمر النصال عن شجاعتهم، والطباق فيه بين البياض والسواد، والخضرة والحمرة، ونلاحظ في البيتين محسنًا بديعيًّا آخر وهو اللف والنشر، حيث ذكر متعددًا، يوم نائل ويوم نزال، ثم ذكر ما لكلٍّ بلا تعيين، فبيض الوجوه يرجع إلى يوم نائلهم، وما بعده يرجع إلى يوم نزالهم، والتدبيج في الأبيات السابقة يُسمى تدبيج الكناية.**

**أما تدبيج التورية، فكقول الحريري:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **فمذ ازور المحبوب الأصفر** | **\*** | **واغبر العيش الأخضر** |
| **اسود يومي الأبيض** | **\*** | **وابيض فودي الأسود** |
| **حتى رثا لي العدو الأزرق** | **\*** | **فيا حبذا الموت الأحمر** |

**فقد ورى بالمحبوب الأصفر عن الذهب، أما بقية الألوان فكنايات، خضرة العيش كناية عن طيبه، وبياض اليوم كناية عن السرور، وسواد الفود كناية عن الشباب والقوة، والعدو الأزرق كناية عن شدة عداوته، والموت الأحمر كناية عن الموت الجديد الطارئ، وبهذا تكون العبارة قد جمعت بين تدبيج التورية، وتدبيج الكناية.**

**ومن طباق التدبيج، في النظم الكريم قوله تعالى: {ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ} [فاطر: 27]، فألوان الجبال المذكورة في الآية كناية عن المشتبه، والواضح من الطرق؛ لأن الجادة البيضاء هي الطريق الواضح الذي كثر سلوكه والسير فيه؛ ولذا قيل: ركب بهم المحجة البيضاء، ودون البيضاء الحمراء، ودون الحمراء السوداء، فهي في الخفاء والالتباس، ضد البيضاء في الظهور والوضوح.**

**وقد اختلف العلماء في ذكر الألوان بقصد الحقيقة أو المجاز، هل يُعد من التدبيج، أو أن التدبيج مقصور على ذكر تلك الألوان بقصد الكناية والتورية فقط؟ والرأي الصواب أن ذكر الألوان بقصد الحقيقة، كما في قول ذي الرمة:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **كحلاء في برج صفراء في نعج** | **\*** | **كأنها فضة قد مسها ذهب** |

**يُعد من التدبيج أيضًا، فهو يشمل ذكر الألوان بقصد الحقيقة أو الكناية أو التورية، أما ذكرها بقصد المجاز فهو كما بينا آنفًا من إيهام التضاد.**

**ويتردد في اصطلاحات البلاغيين مصطلح ترشيح الطباق، والترشيح في اللغة معناه التقوية، وترشيح الطباق معناه أن يوجد بجانب التضاد بين المعنيين صورة أخرى من صور البديع، أو لون من ألوان البلاغة، فيتقوى الطباق بذلك، ويُكتسى الكلام طلاوة وبهاءً، ويزداد المعنى وضوحًا وبيانًا.**

**من ذلك قوله تعالى: {ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ} [آل عمران: 27]، فقد اقترن الطباق بصورة بديعية أخرى، وهي العكس: {ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ} و{ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ}، {ﮭ ﮮ ﮯ}، {ﮱ ﯓ ﯔ}، كما اقترن بمبالغة التكميل التي تليق بالقدرة الإلهية، ففي العطف بقوله تعالى: {ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ}، دلالة على أن من قدر على تلك الأفعال التي لا يقدر عليها غيره، قدر على أن يرزق مَن يشاء من عباده بغير حساب، وهذه مبالغة التكميل المشحونة بقدرة الله الخالق -تبارك وتعالى.**

**ومن ذلك قوله تعالى: {ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ} [القصص: 73]، فقد اجتمع في الآية الطباق واللف والنشر.**

**وقوله : {ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ} [الروم: 24]، فقد اقترن الطباق بين الخوف والطمع بصحة التقسيم؛ إذ ليس في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق والطمع في الأمطار، ولا ثالث لهذين القسمين.**

**ومنه قوله تعالى: {ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ} [النساء: 83]، فقد طابق بين الأمن والخوف، وأقرن الطباق بالجناس بين الأمر والأمن.**

**ومن أقوالهم، قول امرؤ القيس:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **مكر مفر مقبل مدبر معًا** | **\*** | **كجلمود صخر حطَّه السيل من علِ** |

**فقد طابق بين الكر والفر، وبين الإقبال والإدبار، ثم أقرن ذلك بالتكميل معًا، والذي زاد المعنى بهجةً وقوةً؛ إذ أفاد شدة القرب في حالتي الإقبال والإدبار، وحالتي الكر والفر، فأنت تراه مكرًّا في حال الفرار، ومفرًّا في حال الكرِّ، وتراه مقبلًا حال رؤيته لك مدبرًا، وهذا بفضل مبالغة التكميل في قوله معًا، ثم استطرد بعد تمام المطابقة وكمال التكميل إلى التشبيه على سبيل الاستطراد البديعي، بهذا اشتمل البيت على الطباق، والتكميل والاستطراد.**

**ونحن لو استطردنا في الحديث عن أثر الطباق وبلاغته في الكلام، نجد أن الجمع بين المتقابلين هو من الأمور الفطرية المركوزة في الطباع، ولها تعلق وثيق ببلاغة الكلام وأثر كبير في النفوس، فما جاء طباق في الكلام إلا وتعلق به غرض من الأغراض، لا يؤدَّى ذلك الغرض بدونه، وهذا هو معنى الذاتية، والأصالة التي تكلم عنها علماء البلاغة، وعندما أشاروا إلى أن مسائل التقديم والتأخير والذكر الحذف والتشبيه والاستعارة، وغير ذلك من ألوان علمي المعاني والبيان، لها مدخل في بلاغة الكلام؛ لأن حُسنها ذاتي أصيل.**

**ونحن إذا تأملنا أساليب الطباق، وجدنا لهذا اللون مدخلًا في بلاغة هذه الأساليب، وأثرًا في قوتها، وأن فقدانه يخل بهذه الأساليب ولا يجعلها مستقيمة، انظر إلى قول الفرزدق:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **لعن الإله بني كليب إنهم** | **\*** | **لا يغدرون ولا يفون لرجار** |
| **يستيقظون على نهيق حمارهم** | **\*** | **وتنام أعينهم عن الأوتار** |

**الغرض الذي قصده الشاعر، هو الحطّ من شأن هؤلاء القوم، والكشف عن ذِلتهم وهوانهم، وأن أفعالهم مثيرة للسخرية والاستهزاء، وقد حقق له الطباق ما أراد، ولولا الطباق ما استطاع الشاعر أن يكشف عن غرضه، فهؤلاء القوم عاجزون، والعاجز عادةً لا يقدر أن يفعل الشيء وضده، فهم إزاء جارهم لا يقدرون على الوفاء له أو الغدر به، كما كان ذكر الأمرين المتناقضين في البيت الثاني دليلًا على هوانهم، وأنهم موضع السخرية، فهم يستيقظون منزعجين إذا نهق حمارهم؛ حذرًا من أن يكون هناك لص يأخذ بعض متاعهم؛ لأنهم يخافون عليها خوفًا شديدًا، بينما هم لا يبالون بكرامتهم أن تُنتهك، فأعينهم نائمة عن الثأر لا يعنيهم أن يأخذوا به، وفي ذلك أكبر دليل على هوانهم، فالطباق في البيت الثاني، جعل الموازنة بين أفعالهم مثيرة للسخرية منهم، عند الموازنة بين ما يستيقظون له وما ينامون عنه.**

**وهكذا يكون للطباق أثره في إثارة الانفعالات المختلفة في نفس القارئ، أو السامع إزاء الأمور المتناقضة، وهذا القدر كافٍ في إثبات أن حسن الطباق حُسن ذاتي أصيل، وعلى غراره تجري كل الأساليب المشتملة على هذا اللون.**

**وقد تعجب إذا عرفت أن الإمام فخر الدين الرازي، في نهاية: (الإيجاز)، أدرج هذا اللون ضمن مسائل النظم، فهو من مقتضيات الأحوال وموجبات الأغراض؛ فضلًا عن هذا فإن الجمع بين الشيء وضده، يضفي على الكلام رونقًا وبهاءً، ويكسب المعنى حسنًا ونبلًا، فهو فوق تثبيته المعنى في النفس يصف الشيء المتحدث عنه إزاء الضدين المتقابلين، ويجعل لكل منهما حسنًا لا يكون لهما إذا انفردَا، وهذا هو معنى قول القائل:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **فالوجه مثل الصبح مبيض** | **\*** | **والفرع مثل الليل مسود** |
| **ضدان لما استجمعا حسُنا** | **\*** | **والضد يظهر حسنه الضد** |

**ووظيفة الطباق لا تقف عند هذا الزخرف وتلك الزينة الشكلية، بل تتعداها إلى غايات أسمى، فلا بد أن يكون هناك معنىً لطيف ومغذىً دقيق، وراء جمع الضدين في إطار واحد، وإلا كان هذا الجمع عبثًا وضربًا من الهذيان، ولننظر في قول الله : {ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ} [القصص: 73]، فقد جمعت الآية الكريمة، بين الليل والنهار، وهما نعمتان من نعم الله على عباده، ورحمة منه  بهم، ثم ذُكرت العلة من جعل الزمان ليلًا ونهارًا، نسكن ليلًا ونسعى ونتحرك نهارًا، والحركة ينبغي أن تكون لمصلحة وابتغاء من فضل الله تعالى، لا إفسادًا في الأرض؛ ولذا أُوثر التعبير بابتغاء الفضل دون الحركة، فالحركة تكون للإصلاح وللإفساد، وابتغاء الفضل لا يكون إلا إصلاحًا.**

**وفي ذكر العلة جمع بين ضدين، السكن وابتغاء الفضل، والجمع بين الضدين في صدر الآية، ثم في عجزها حثٌّ للمؤمن ليتأمل هذه النعمة، لما كان الزمان ليلًا ونهارًا، سكنًا وابتغاءً، كيف يكون الحال لو كان الزمان نهارًا سرمدًا إلى يوم القيامة، أو ليلًا سرمدًا إلى يوم القيامة؛ ولذا دعانا  للتأمل والنظر والتدبر في قوله : {ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ} [القصص: 71، 72].**

**ولنتأمل قوله : {ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ} [آل عمران 26: 27]، نجده قد جمع بين أفعال متضادة: {ﮋ}، و{ﮏ}، و{ﮓ}، و{ﮖ}، وبين أسماء متضادة: {ﮤ}، و{ﮦ}، و {ﮭ}، و{ﮯ}، وهذا الجمع يبرز مدى قدرة الخالق  وهيمنته وسلطانه القاهر، فهو الذي يستطيع أن يؤتي من يشاء من عباده الملك، وينزعه ممن يشاء متى شاء، لا راد لمشيئته، وهو الذي يستطيع إذلال مَن يشاء، وإعزاز من يشاء، متى أراد، وكيف شاء دون اعتبار لمقاييس البشر، فيمن يستحق العزة ومن يستحق الإذلال.**

**ثم نلاحظ التدرج في القدرة، والغلبة، والقهر، والهيمنة، فإذا كان في البشر مَن يستطيع بماله وجاهه وسلطانه أن يعطي ويمنع، وأن يعز ويذل على وجهٍ من الوجوه؛ فقد جاءت الآية الثانية بأمور متضادة ينفرد بها المهيمن  وهو إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، وإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي، فمَن ذا الذي يدعي القدرة على ذلك؟ إنها أمور ينفرد بها القادر .**

**وبهذا يتضح لنا، أن الطباق ليس قاصرًا على الزينة والزخرف، وليس الهدف منه مجرد التذويق الشكلي، بل إنه يتجاوز ذلك إلى أهداف أسمى، وغايات لا تتناهى.**

**المراجع والمصادر**

1. **القزويني ، زكريا بن محمد القزويني تحقيق: محمد السعدي فرهود ، (الإيضاح في علوم البلاغة) ، طبعة رقم1، سنة النشر: 2001 م**
2. **الجرجاني، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، (دلائل الاعجاز) ، ط5، مكتبة الخانجي، 2004م.**
3. **أبو موسى، د. محمد محمد أبو موسى، (دلالات التراكيب دراسة بلاغية) ، القاهرة، مكتبة وهبة للطباعة والنشر والتوزيع، 1987م**
4. **المراغي، أحمد مصطفى المراغي، (تاريخ علوم البلاغة و التعريف برجالها) ، القاهرة، مكتبة و مطبعة مصطفى البابي، ط1، 1950م**
5. **فيود ، د. بسيوني عبد الفتاح فيود ، (علم البيان: دراسة تحليلية لمسائل البيان) ، القاهرة، مؤسسة المختار ، دار المعالم الثقافية، الإحساء ، ط 2، 1998 م**
6. **الخوارزمي ، الشيخ يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الخوارزمي الملقب بسراج الدين السكاكي، (مفتاح العلوم) ، لبنان، مكتبة المقهى، نشر دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ، 1987م**
7. **الشاطئ، عائشة بنت الشاطئ، (التفسير البياني) ، مكتبة المجلس، الطبعة الأولى، 1962م**
8. **فيود، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، (علم البديع: دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع) ،القاهرة، مؤسسة المختار، 2004**
9. **الصعيدي، عبد المتعال الصعيدي، (البغية على الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة) ،مكتبة الآداب، 1999م**
10. **شاهين، كامل السيد شاهين، (اللباب في العروض و القافية) ،القاهرة، الهيئة العامة لشئون الأميرية، 1978م**
11. **القيرواني، ابن رشيق القيرواني، (العمدة في محاسن الشعر وآدابه) ،الناشر: دار الكتب العلمية، 2001م**
12. **أبو موسى، د. محمد محمد أبو موسى، (التصوير البياني) ،القاهرة، مكتبة وهبة للطباعة والنشر والتوزيع، 1997م**